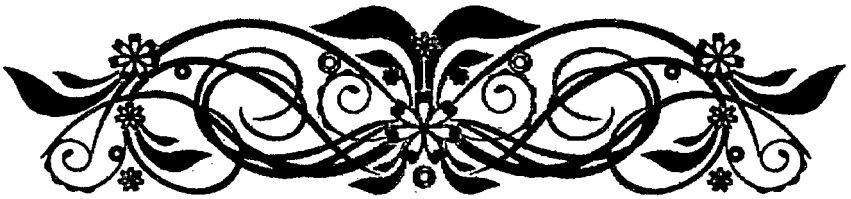

نداء النبي (صلى الله عليه وسلم)

في القرآن العظيم

إعداد الدكتور

د. عبد الله ناصر صباح الملا

من دولة الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لله رب العالمين، وصلاة وسلامًا على المبعوث رحمة للعالمين وعلى أصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ..

فقد امتن الله – عز وجل- على أمتنا بأن أرسل إليها رسولاً من أفضل رسله وأعظمهم، فكانت هذه منة عظيمة من الله – عز وجل- لهذه الأمة الإسلامية، وفضله الله – عز وجل- على جميع رسله وأنبيائه ، ثم أمر الله – سبحانه- هذه الأمة باتباعه وطاعته وتوقيره، والتحاكم إليه فيما يعن لهم من أمور.

ومن تفضيل الله – عز وجل- لنبينا (ﷺ) أنه لم يناده باسمه مجردًا كما نادى أنبياءَه ورسله من قبل، بل ناداه بوصفه الشريف، حتى إن الآيات التي ذكر فيها اسمه أتبعها الله – عز وجل- بصفته ونعته بأنه رسول الله (ﷺ) كما قال – عز من قائل – : " محمد رسول الله ... "[1]، وغيرها من آيات ..

---

(1) الفتح : ٢٩ وتمام الآية : { محمد رسول الله والذين معه أشداء علي الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوهم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في =

وكل هذا يدل على عظيم قدره ، وعلو منزلته، عند خالقه – عزّ وجل– ، ويدل على أن صاحب هذا الاسم وهو رسول الله (ﷺ) يجب الإيمان به واتباعه ، وتلقين للأمة أن يسموه بهذا الوصف وينادوه .

* * *

الانجيل كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى علي سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وآجرا عظيما } .

أدوات النداء واستعمالاتها

تمهيد : ـ

النداء علامة من علامات الاتصال بين الناس وهو دليل قوي على اجتماعية اللغة، ومن ثم فهو كثير الاستعمال، ولا يكاد يخلو كلام إنسان كل يوم من النداء، فأنت في حاجة كل وقت أن تنادي شخصًا ما، أو شيئًا، لذلك كان للنداء أسلوبه الخاص، بل جملة خاصة اختلف في شأنها اللغويون ؟ .

فهي جملة لأنها تفيد معنى كاملاً حين تقف عليها، وهي تتكون من حرف للنداء ومنادى، والجمل المعروفة لا تتكون من حرف واسم فقط، ولابد أن يكون فيها إسناد بين اسم واسم أو بين فعل واسم، لهذا كله يرى بعض اللغويون المحدثين قبول هذا التركيب على أنه جملة لكنهم يطلقون عليها "جملة غير إسنادية".

على أن النحو العربي يرى أن جملة النداء جملة تامة شأنها شأن الجمل الأخرى يتوافر فيها إسناد غير ظاهر؛ لأن المنادي عندهم نوع من أنواع "المفعول به" ، وهو منصوب بفعل محذوف تقديره: أنادي، أو أدعو، ولكن هذا الفعل لا يظهر مطلقًا وحينئذ ينوب منابه ويعمل عمله حرف النداء.

أدوات النداء واستعمالاتها : ▪

حروف النداء متعددة ؛ منها ما هو للقريب، ومنها ما هو للمتوسط البعد، ومنها ما هو للبعيد، ومقياس القرب والبعد قد يكون مقياسًا ماديًا في المكان والزمان، وقد يكون مقياسًا معنويًا كالابن والصديق والعدو .

وحروف النداء ثمانية : ▪

(١) يا : وهي أشهر حروف النداء وأكثرها استعمالاً، ويجوز حذفها في الاستعمال الكثير ويبقى أثرها ولا يقدر عند الحذف غيرها، مثل : أستاذنا الجليل ... وأصلها أن تكون للبعيد حقيقة أو حكمًا وهو مذهب سيبويه وابن مالك وابن هشام (١). وهي أم الباب، ولهذا كانت أعمها.

وقد ينادي بها القريب وذلك لنكت : منها :.

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٤/٤٤٥ ط/ دار التراث ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم . وانظر همع الهوامع للسيوطي : ٣/٣٣ ط/ دار البحوث العربية – الكويت . والجني الداني ص : ٣٤٩ للمرادي: ط/ دار الكتب – بغداد ١٩٧٦م .

١- إظهار الحرص في وقوعه على إقبال المدعو، نحو (يا موسى أقبل) (١).

٢- كون الخطاب المتلو معتنىً به، نحو : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) (٢).

٣- قصد تعظيم شأن المدعو، نحو : (يارب).

٤- قصد انحطاطه ، كقول فرعون : (وإني لأظنك ياموسى مسحورًا) (٣) (٤).

وقد كثر النداء في القرآن الكريم بـ (يا أيها) لأن فيه أوجهًا من التأكيد والمبالغة. يقول الزمخشري: لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره، قلت: لاستقلا له بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة، لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام، وخطوب جسام، ومعان علـيهم أن

---

(١) القصص : ٣١.

(٢) البقرة : ٢١.

(٣) الإسراء : ١٠١.

(٤) الإتقان : ٣/٢٤٧.

يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون. فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ (١).

فإن قيل كيف تكون " يا " لنداء البعيد مع أنها قد تستعمل لنداء الله (عز وجل) وهو أقرب إلينا من حبل الوريد – قربًا يليق بذاته وهو علمه وإحاطته.

يقول الزمخشري جوابًا عن هذا : وذلك استقصار منه لنفسه، واستبعاد لها من مظان الزلفى، وما يقربه إلى رضوان الله ومنازل المقربين، هضمًا لنفسه وإقرارًا عليها بالتفريط في جنب الله، مع فرط التهالك على استجابة دعوته والإذن لندائه وابتهاله(٢).

(٢) الهمزة : والنداء بها قليل في كلام العرب ولكنهم استعملوها في نداءاتهم في الجاهلية والإسلام.

وهي : لنداء القريب ومن شواهد النداء بها : قول امرئ القيس الكندي:

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري : ١/١٠٦ ط/ المكتبة التوفيقية – الأولى ٢٠١٢م.

(٢) الكشاف : ١/١٠٥ – ١٠٦.

أجَارتَنَا إنا غريبان ههنا .. وكل غريب للغريب نسيب (١).

ومن ذلك قول جرير :

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم .. إني أخاف عليكم أن أغضبا (٢).

هل استعمل القرآن الكريم في نداءاته غير الياء ؟ : ■

لم يستعمل القرآن الكريم في نداءاته غير حرف [الياء] .

وأما ما ورد في قوله تعالى : (أمَّن هو قانت آناء الليل ...) (٣). وغيرها من آيات (٤). فقد قرأ قالون عن نافع المدني، وابن كثير وحمزة بتخفيف الميم (أَمَّن) وذلك من طريقي الشاطبية والدرة .

قال الشاطبي : أَمَنْ خَفَّ حِرمِيٌّ فَشَا ... (١).

---

(١) الأغاني لأبي فرج الأصبهاني ١١٩/٩ دار الفكر / بيروت . وانظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د/ جواد علي : ٦٢/٦ ط/ دار الساقي ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

(٢) كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي : ٦٧/٣ ط/ دار مكتبة الهلال ت د/ مهدي المخزومي .

(٣) الزمر : ٩.

(٤) مثل الآية ٨ سورة فاطر ، والآية ١٩ سورة الزمر وغير ذلك .

وهذه الهمزة يحتمل أن تكون للنداء ولغيره.

وقراءة التخفيف الهمزة فيها للاستفهام وتكون للتنبيه وتقدير الكلام: أمن هو قانت آناء الليل ساجدًا أو قائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه كمن هو على خلاف ذلك، ودل عليه قوله تعالى: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون).

وقد تكون الهمزة للنداء، والتقدير: يا من هو قانت أبشر فإنك من أصحاب الجنة، لأن ما قبله دل عليه وهو قوله تعالى: (إنك من أصحاب النار) (٢).

ومن قرأ بالتشديد تكون الهمزة للاستفهام ، ومعادلها محذوف، وتقديرها: أهذا الكافر الجاحد بربه خير أَمَّن هو قانت ؟ .

لكن الوجه الأَوْلَى والراجح : أن تكون الهمزة للاستفهام ولا وجه للنداء هنا، لأن الموضع موضع معادلة، فليس النداء مما يقع في هذا الموضع، إنما يقع في هذا الموضع الجمل التي تكون أخبارًا وليس

---

(١) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة للشيخ/ عبد الفتاح عبد الغني القاضي ٢/٧٧٣ ط/ دار السلام ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م .

(٢) الزمر : ٨.

النداء كذلك ، ولأن التسوية لا تكون إلا بين شيئين وفي الجملتين في الخبر (١).

وعلى رأي من قال بالنداء يحتمل أن يكون ذلك تفسيرًا لقراءة التخفيف وهو محتمل ، لكن الأوجه هو الأول وهو جعل الهمزة للاستفهام لا للنداء .

(٣) أي : واختلف النحاة فيما ينادى بأي فقال المبرد : هي لنداء القريب كالهمزة المفرد، وقال ابن مالك : هي لنداء البعيد ك [يا] .

ومن شواهد النداء بها قول كثير عزة :

ألم تسمعي – أي عَبْدَ – في رونق الضحى٠٠ بكاءَ حماماتٍ لهن هدير(٢).

(٤) أيا : وهي عند جمهور النحاة لنداء البعيد ، ومن شواهد النداء بها قول مجنون بني عامر قيس بن الملوح :

أيا شِبْه ليلى لا تُراعي فإنني ٠٠ لكِ اليومَ من وحشية لصديقُ (١).

---

(١) إعراب القرآن للزجاج ٦٤٩/٢ ط/ دار الكتاب اللبناني – بيروت – لبنان .

(٢) مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري ١٠٦/١٠ ط/ دار الفكر بيروت ، ت / أ.د/ مازن المبارك.

(٥) هيا : وهي لنداء البعيد، واختلف في هاء [هيا] فقيل: هي أصل، لأن الإبدال نوع من التصريف وهو لا يدخل الحروف، وقيل: هاؤها بدل همزة [أيا] لأن هذا إبدال لغوي، والإبدال التصريفي هو المختص بالأسماء المتمكنة والأفعال.

ومن شواهد النداء بها قول الشاعر :

هَيَا أمَّ عمرو هل لي اليوم عندكم ٠٠ بغيبة أبصار الوشاة رسولُ (٢).

(٦) وا : قال ابن هشام : "وا " وتكون حرف نداء مختصًا بباب الندبة، نحو وا زيداه، وأجاز بعضهم استعماله له في النداء الحقيقي (٣).

وذكر ابن عصفور "وا" في حروف النداء واستشهد لها بقول الراجز وهو رجل من بني أسد وقيل: هو الفراء.

وَافَقْعًا وأين مني فقعسُ ٠٠ أ إبلي يأخذها كَرَوَّسُ(١).

---

(١) تاج العروس للزبيدي ١٢٩/٢١ ط/ دار الهداية ، وانظر أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ٦/٤، ٧ ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد ، ومغني اللبيب ١٢٧/١.

(٢) لسان العرب لابن منظور : ٣٦٤/١٥ ، دار صادر بيروت ، الأولى، ومغني اللبيب : ١٠٧/١

(٣) مغني اللبيب ٤٨٣/١ حرف الواو .

سمو منزلته صلى الله عليه وسلم :-

لقد من الله عز وجل على من فى الأرض جميعا بأن أرسل إليهم أفضل رسله. وخيرته من خلقه فقد فضله سبحانه وتعالى على جميع خلقه وأعلى من قدره وأعظم من منزاته واصطفاه نبيا ورسولا وخصه بفضائل لم تكن لأحد من قبله بل كرمه بخصائص انفرد بها (ﷺ) عن غيره من الأنبياء والرسل جميعا عليهم السلام ولا غرو فى ذلك فهو المبعوث رحمة للعالمين قال تعالى: [وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين](٢).

ثم إن الله عز وجل قد أخذ العهد والميثاق على جميع الرسل والأنبياء عليهم السلام إن أرسل محمدا (ﷺ). وهم أحياء أن يؤمنوا به وينصروه ويتبعوه قال الحق سبحانه [وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين](٣) ثم بين سبحانه فى كتابه أن طاعته (ﷺ) من طاعة الله بل قرن بين طاعته سبحانه وطاعة رسوله

---

(١) اللمحة في شرح الملحة لمحمد بن الحسن الصائغ ط/ المدينة المنورة، الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م ت/ إبراهيم الصاعدي. ومغني اللبيب ١/١١٧.

(٢) الأنبياء : ١٠٧.

(٣) آل عمران : ٨١.

(ﷺ) قال تعالى : [من يطع الرسول فقد أطاع الله ....] (١) ومن علو قدره (ﷺ) وسمو منزلته أنه أمان لأمته من العذاب والهلاك قال سبحانه: [وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم] (٢).

بل كرمه الله وخصه بخصال لم تعط لأحد من قبله ويظهر ذلك جليا فى حديث جابر بن عبد الله – رضى الله عنه – أن النبى (ﷺ) قال : "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى، كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة"(٣).

وفوق كل ذلك أن الله – عز وجل– غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر،

---

(١) النساء : ٨٠.

(٢) الأنفال : ٣٣.

(٣) صحيح البخاري : ك / التيمم ١/١٢٥ ح ٣٢٨ وصحيح مسلم : ك / المساجد ومواضع الصلاة : ١/٣٧٠ ح ٥٢١.

قال تعالى: [ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر] (١) . كذلك أن الله عز وجل أقسم بحياته ولم يقسم بحياة غيره من الأنبياء قال تعالى: [لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون] (٢).

كما أن الله عز وجل تكفل بحراسته (ﷺ) وبحفظ دينه من التحريف فقد تولى الله عز وجل حفظ القرآن بنفسه ولم يوكله لأحد كما أوكل الكتب السابقة إلى أناس فحرفوا وبدلوا . قال الله تعالى: [والله يعصمك من الناس](٣) ، وقال [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون] (٤).

وقال عز وجل: [وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ..] (٥) . هكذا بين القرآن الكريم مدى منزلة الرسول (□) وعلو قدره وشرفه وسمو مكانته عند ربه وأوجب على الناس طاعته ومحبته فهى من محبة وطاعة الله عز وجل فينبغى على الناس جميعا أن يقدروه حق قدره ويوقروه حق توقيره كما أمر بذلك رب الناس جميعا بل إن إيذاءه (ﷺ) بالقول أو الفعل إيذاء لله عز وجل .

---

(١) الفتح : ٢.

(٢) الحجر : ٧٢.

(٣) المائدة : ٦٧.

(٤) الحجر : ٩.

(٥) البقرة : ٧٥.

* * *

المبحث الأول

النداء : الصوت، وقد يضم، وناداه مناداةً ونداءً صاح به[1].

وهو في الصناعة : تصويتك بمن تريد إقباله عليك لتخاطبه(٢).

وهو إسناد للغائب، وتنبيه للحاضر، وتوجيه للمعرض، وتفريغ للمشغول.

فهو استدعاء المخاطب المخاطبَ إذا كان بعيدًا.

أوجه النداء في القرآن : ■

والنداء في القرآن على ستة أوجه : -

أحدها : الأذان، ومنه قوله تعالى: [وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوًا ولعبًا ذلك بأنهم قوما لا يعقلون "] (٣).

---

(١) مختار الصحاح للرازي : ٦٨٨/١ ط/ بيروت ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ت / محمود خاطر.

(٢) الكليات لأبي البقاء الكفوي : ٩٠٦/١ فصل النون ط/ مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٥١٩هـ / ١٩٩٨م.

(٣) المائدة : ٥٨.

والثاني : الدعاء ، ومنه قوله تعالى: [ونوحًا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم] (١).

والثالث: الأمر. ومنه قوله تعالى : [وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين] (٢).

والرابع : التكليم. ومنه قوله تعالى: [وما كنت بجانب الطور إذ ناديا ولكن رحمة ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون](٣).

والخامس: النفخ في الصور. ومنه قوله تعالى: [واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب] (٤).

والسادس: الاستغاثة. ومنه قوله تعالى: [ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون] (٥). (١).

---

(١) الأنبياء : ٧٦.

(٢) الشعراء : ١٠.

(٣) القصص : ٤٦.

(٤) ق : ٤١.

(٥) الزخرف : ٧٧.

وفي اصطلاح النحاة: هو الدعاء بإحدى حروف النداء .

وفي الإتقان: النداء: هو طلب إقبال المدعوّ على الداعي بحرف نائب مناب "أدعو".

ويصحب في الأكثر الأمر والنهي، والغالب تقدمه نحو: "يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون " (٢). وقد يتأخر، نحو : (وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)(٣).

وقد يصحب الجملة الخبرية فتعقبها جملة الأمر، نحو : [يا أيها الناس ضرب مثلٌ فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقدوه منه ضعف الطالب والمطلوب] (٤)، وقد لا تعقبها، نحو : [يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين أخوتي إني ربي لطيف بما يشاء إنه هو العليم الحكيم] (٥).

---

(١) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي : ٥٩٣/١ ط/ مؤسسة الرسالة – بيروت/ لبنان ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

(٢) البقرة : ٢١.

(٣) النور : ٣١.

(٤) الحج : ٧٣.

(٥) يوسف : ١٠٠.

وقد تصحبه الجملة الاستفهامية ، نحو : [يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم ...] (١).

وقد ترد صورة النداء لغيره مجازًا، كالإغراء والتحذير، وقد اجتمعا في قوله تعالى: [إذا انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها] (٢).والاختصاص، في قوله تعالى: (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) (٣).

والتنبيه: كقوله تعالى: [ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخب في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون] (٤).

والتعجب، كقوله تعالى: [يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون] (٥).

---

(١) التحريم : ١.

(٢) الشمس : من ١٣ ، ١٥.

(٣) هود : ٧٣.

(٤) النمل : ٢٥.

(٥) يس : ٣٠.

والتحسر، كقوله تعالى: [يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابًا] (١). (٢).

والاستغاثة. نحو: [يا للمؤمن للمظلوم] ولا يستعمل فيها غير [يا] النداء.

---

(١) النبأ : ٤٠.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي : ٣/٢٤٦ – ٢٤٧ ، ط / مكتبة دار التراث ت / محمد أبو الفضل إبراهيم.

المبحث الثاني

أساليب نداء الله عز وجل

لنبيه ورسوله(صلى الله عليه وسلم) نداؤه (صلى الله عليه وسلم)

بوصف الرسالة

إن الله عز وجل قد شرف محمدا (صلى الله عليه وسلم) عندما ناداه بوصف الرسالة فلم يناده كما نادى الرسل والأنبياء السابقين وهذا من خصائصه (صلى الله عليه وسلم) وذلك يدل على عموم رسالته وشمولها أو نسخها لكل شرع ودين سابق لشرعه ودينه .

أما الأنبياء من قبله لم يناد سوى باسمه العلم كما قال سبحانه وتعالى: [قال ياآدم أنبهم بأسمائهم ...] (١)، وقال: [قيل يانوح اهبط بسلام] (٢)، وقال: [يا إبراهيم أعرض عن هذا ...] (٣)، وقال أيضا: [يوسف أعرض عن هذا] (٤) [قال يا موسى

---

(١) البقرة : ٣٣.

(٢) هود : ٤٨.

(٣) هود : ٧٦.

(٤) يوسف : ٢٩.

إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ...] (١) قال: [يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ...] (٢) ، [يا يحيى خذ الكتاب بقوة](٣) وقال: [إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى ...](٤)

لكن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) لم ينادِ باسمه مجردًا إلا إذا كان على وجه الإخبار بكونه رسولاً قال تعالى: (محمد رسول الله ...) (٥).

ولا يخفى ما فى ندائه (صلى الله عليه وسلم) بوصف الرسالة فكأن هذا الوصف قام مقام العلم المخبر عنه حتى لكأنه بذلك هو الرسول .

وهذا منة من الله تعالى له ، وفيه ما فيه من التشريف والتعظيم والتكريم قال الزمخشرى: (٦) جعل نداءه بالنبى والرسول فى قوله (يا أيها النبى اتق الله)(٧) (يا أيها النبى لما

---

(١) الأعراف : ١٤٤.

(٢) ص : ٢٦.

(٣) مريم : ١٢.

(٤) آل عمران : ٥٥.

(٥) الفتح : ٢٩.

(٦) الكشاف : ٥١٥/٣ ، ٥١٦.

(٧) الأحزاب : ١.

تحرم) (١) (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك ...) (٢) وترك نداءه باسمه كما قال ياآدم ، يا موسى ، يا عيسى ، يا داود : كرامة له وتشريفًا وربنا بمحله وتنويهًا بفضله . فإن قلت : إن لم يوقع اسمه فى النداء فقد أوقفه فى الإخبار فى قوله (محمد رسول الله) [وما محمد إلا رسول] (٣) قلت: ذاك تعليم للناس بأنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به فلا تفاوت بين النداء والإخبار، ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره بنحو ما ذكره فى النداء [لقد جاءكم رسول من أنفسكم] (٤) و[قال الرسول يا رب] (٥).

والنداء له (صلى الله عليه وسلم) بوصف الرسالة جاء فى آيتين ، فالآية الأولى هى قوله تعالى: [يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون الكفر.... ولهم فى الآخرة عذاب عظيم] (٦) وعن سبب نزول هذه الآية يروى الإمام مسلم بسنده قائلاً : عن البراء بن عازب قال: " مر على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يهودى مجلودا فدعاهم فقال: هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم، فقالوا نعم، فدعا رجل من علمائهم

---

(١) التحريم : ١.

(٢) المائدة : ٦٧.

(٣) آل عمران : ١٤٤.

(٤) التوبة : ١٢٨.

(٥) الفرقان : ٣٠.

(٦) المائدة : ٤١.

فقال : أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ فقال : لا ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك، نجده الرجم ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، قلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه فأمر به فرجم فأنزل إليه عز وجل [يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ....] إلى قوله [إن أوتيتم هذا فخذوه] . يقول: ائتوا محمدا – صلى الله عليه وسلم– فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا فأنزل الله تعالى: [ومن لم يحكم بما أنزل إليه فأولئك هم الكافرون] ، و [ومن لم يحكم بما أنزل إليه فأولئك هم الظالمون]، و[ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون] فى الكفار كلها (١) ففى هذه الآية نداء من الله عز وجل لنبيه (صلى الله عليه وسلم) بـ [يا أيها الرسول] تشريفا له ورفعة لقدره وبيانا لسمو منزلته ورفعتها حيث لم يناده باسمه مجردا وفى هذا تعليم وتأديب للبشرية فى مخاطبة الصادق المصدوق، يتضمن النهى عن مخاطبته باسمه ، والأمر لهم بأن يخاطبوه بوصفه، ولما جهل بعض الأعراب هذا الأدب كما جاء فى سورة الحجرات حينما قالوا يا محمد اخرج إلينا فقال الله [إن الذين

---

(١) صحيح مسلم ك / الحدود ، ب / رجم اليهود وأهل الذمة في الزنى ١٣٢٧/٣ ح ١٧٠٠ .

ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم] (١) فنهى الله الجميع أن ينادوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) باسمه بل يقول يا رسول الله ، يانبى الله ، فقال عز من قائل [لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا](٢).

فالآية التي هي مقصودنا من الكلام يقول الله عز وجل فيها لرسوله (صلى الله عليه وسلم) بعد أن ناداه ووصفه بوصف الرسالة لا تحزن على هؤلاء المنافقين الذين يحيدون عن طريق الحق ويبدلون ويحرفون كلام الله الذي جاءهم به موسى عليه السلام من بعد مواضعه ، والحال والشأن أنه من يرد الله فتنته وضلالته وبعده عن طريق الحق فلن تستطيع زحزحته عن ذلك لأنك لا تملك من الله شيئا فى دفع الفتنة عنه فهم منهمكون فى الضلال ، معرضون عن طريق الهداية والرشاد . ثم يبين الله عز وجل جزاءهم فى الدنيا بأن يفضحهم ويهتك أستارهم بظهور نفاقهم للمؤمنين، وذلك كله بسبب ظهور كذبهم فى كتمان ما أنزل إليه على موسى عليه السلام، أما عذاب الآخرة فهو أخزى وأنكى لهم فقد أعد الله لهم فى الآخرة عذابا عظيما، لا يقادر قدره إلا هو .

---

(١) الحجرات : ٤ – ٥.

(٢) النور : ٦٢.

فالسر في ندائه (صلى الله عليه وسلم) بوصف الرسالة هو أن يثبت قلب رسوله، وأنه مرسل من ربه ويعلم أنه على الحق وأن لا يهتم بمكايد هؤلاء المنافقين واليهود.

والآية الثانية : هي قوله تعالى [يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين](١).

سبب النزول :

أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت " سهر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذات ليلة فقلت : يا رسول الله ما شأنك ؟ قال : ألا رجل يحرسنا الليلة؟ فبينما نحن في ذلك سمعت صوت السلاح فقال من هذا ؟ قال سعد وحذيفة: جئنا نحرسك ، فنام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى سمعت غطيطه ، ونزلت هذه الآية فأخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأسه من قبة أدم ، وقال : انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمنى الله " (٢).

ففى هذه الآية الكريمة ينادى ربنا عز وجل رسولنا (صلى الله عليه وسلم) بوصفه الشريف : [يا أيها الرسول] ثم أمره بتبليغ ما أنزل إليه فكان هذا النداء بهذا الوصف في غاية المناسبة، حيث اصطفاه الله عز وجل

---

(١) المائدة : ٦٧.

(٢) صحيح البخاري ك / التبني ب / قوله صلى الله عليه وسلم : ليت كذا وكذا ج٦ / ٢٦٤٢.

وشرفه وأعلى قدره وحمله تبليغ مهمة هذا الدين ودعوة الناس إليه ، معتصما به سبحانه، واثقا بنصره وإعانته سبحانه .

يقول الإمام الرازي بعد أن ذكر أقوالا فى سبب نزول هذه الآية . اعلم أن الأولى حمل الآية على أن الله عز وجل آمنه من مكر اليهود والنصارى ، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم ، وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير وما بعدها لما كان كلاما مع اليهود والنصارى امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة فى البين على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها [1].

وقوله تعالى [بلغ ما أنزل إليك من ربك]الديمومة فى ذلك وألا يتوقف عند أى عارض غير مراقب أحدا ولا خائف من أن يناله مكروه أبدا [2].

ويقول ابن عاشور في الإتيان بضمير المخاطب في قوله: [إليك من ربك] إيماء عظيم إلى تشريف الرسول (ﷺ) بمرتبة الوساطة بين الله والناس إذ جعل الإنزال إليه ولم يقل إليكم أو إليهم .... وفى

---

(1) مفاتيح الغيب ٤٢/١٢ ط/ دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى بيروت ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

(2) روح المعاني للألوسي ١٨٨/٦ ـ ط / دار إحياء التراث العربي – بيروت .

تعليق الإنزال بأنه من الرب تشريف للمنزل والإتيان بلفظ الذى هنا دون اسم الجلالة لما فى التذكير بأنه ربه من معنى كرامته ومن معنى أداء ما أراد إبلاغه كما ينبغى من التعجيل والإشاعة ، والحث على تناوله والعمل بما فيه ، وقوله تعالى: [وإن لم تفعل فما بلغت رسالته] أى : إذا لم تبلغ جميع ما أنزل إليك ، فتركت بعضه لم تكن مبلغا رسالته ، لأن كتمان البعض مثل كتمان الجميع فى الاتصاف بعدم التبليغ ، وجاء الشرط بـ (إن): لأن شأنها فى كلام العرب عدم اليقين لوقوع الشرط ، لأن عدم التبليغ غير مظنون به (ﷺ) وإنما فرض هذا الشرط ليبنى عليها الجواب وهو قوله تعالى [فما بلغت رسالته] .

وقوله [والله يعصمك من الناس] افتتح باسم الجلالة للاهتمام به ، لأن المخاطب والسامعين يترقبون عقب الأمر بتبليغ كل ما أنزل إليه أن يلاقى عنتا وتكالبا عليه من أعدائه ، فافتتح تضمينه بذكر اسم الله ، لأن المعنى : هذا ما عليك وأما ما علينا فالله يعصمك ، والعصمة هنا هى الحفظ والوقاية من كيد أعدائه. وقد جاء الوعد بها فى القرآن أيضا : قال تعالى [فسيكفيكهم الله][1].

وهنا يثار سؤال : هل كتم الرسول (ﷺ) شيئا من الوحى ؟

والجواب : حاشاه (ﷺ) أن يقصر فى حق الله تعالى ، فقد وصفه ربه بأحسن الأخلاق وأدبه فأحسن تأديبه ، ولكن المراد هنا بيان

---

(1) التحرير والتنوير لابن عاشور : ٦/٢٥٩ – ٢٦٢.

أنه (ﷺ) قد بلغ ما أمر به البلاغ التام دون أن يزيد شيئا على ما كلفه ربه أو ينقص شيئا والدليل على ذلك ما أخرجه البخارى فى صحيحه قال : حدثنا محمد ابن يوسف عن إسماعيل عن الشعبى عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت: من حدثك أن محمدًا (ﷺ) كتم شيئا مما أنزل عليه فقد كذب والله يقول: [يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك] الآية [1].

فقد بلغ رسولنا (ﷺ) رسالة ربه أعظم ما يكون البلاغ ولم يكتم حرفا واحدا مما أمره به ربه أن يبلغه للناس .

وقال صاحب الإنصاف : لما كان عدم تبليغ الرسالة أمرا معلوما عند الناس أنه عظيم شنيع، ينقم على مرتكبه، بل عدم نشر العلم من العالم أمر فظيع فضلا عن كتمان الرسالة من الرسول، لما كان الأمر كذلك استغنى عن ذكر الزيادات التى يتفاوت بها الشرط والجزاء للصوقها بالجزاء في الإفهام وإن كان من سمع عدم تبليغ الرسالة فهم ما وراءه من الوعيد والتهديد. وحسن هذا الأسلوب فى الكتاب العزيز بذكر الشرط عاما بقوله [وإن لم تفعل]ولم يقل فإن لم تبلغ الرسالة فما بلغت الرسالة ، حتى يكون اللفظ متغايرا ، وهذه المغايرة اللفظية، وإن كان المعنى واحدا أحسن رونقًا، وأظهر طلاوة من تكرار اللفظ الواحد

---

(1) صحيح البخاري ك / التفسير ، ب / قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ) ١٦٨٦/٤ ح ٤٣٣٦ ط/ دار ابن كثير – اليمامة – بيروت – الثالثة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م ت/ د/ مصطفى ديب البغا .

فى الشرط والجزاء [1]. وفى قوله تعالى [والله يعصمك من الناس] يثار سؤال أيضا وهو أين ضمان العصمة وقد شج وجهه (ﷺ) فى غزوة أحد وكسرت رَبَاعِيتُه وجرح ، وذلك ما روى فى صحيح مسلم قال : حدثنا عبد الله بن سلمة حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه: أن رسول الله (ﷺ) كسرت رباعيته يوم أحد وشج فى رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول : " كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وشجوا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله "فأنزل الله تعالى [ليس لك من الأمر شئ] [2].

وقد أجاب عن هذا التساؤل الزركشى قائلا: وأجيب بوجهين أحدهما: أن هذا كان قبل نزول هذه الآية ، لأن غزوة أحد كانت سنة ثلاث من الهجرة ، وسورة المائدة من أواخر ما نزل بالمدينة . والثانى : أن المراد بالعصمة العصمة من القتل، وفيه تنبيه على أنه يجب عليه أن يتحمل كل ما دون النفس من أنواع البلاء فما أشد تكليف الأنبياء [3].

فكان (ﷺ) لا يبالى بعد ذلك بما يلقاه فى سبيل الله عز وجل لأن الله سبحانه يرعاه ويحفظه فقد أخرج البخارى فى صحيحه قائلا : حدثنا موسى بن اسماعيل حدثنا أبو عوانه عن الأسود بن قيس عن جندب بن سفيان أن رسول الله (ﷺ) كان فى بعض المشاهد وقد

---

(1) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ٦٣١/١.

(2) صحيح مسلم ب/ غزوة أحد : ١٤١٧/٣.

(3) البرهان في علوم القرآن : ٦٦/٢ دار المعرفة .

دميت أصبعه فقال : " هل أنت إلا إصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت" [1].

فكان (ﷺ) يتحمل الكثير وذلك ليكون قدوة وأسوة لأمته.

وقد أعيد افتتاح الخطاب لنبينا (ﷺ) بوصف الرسول إشعارا بمنتهى شرفه ولهذا الوصف فى الخطاب الثانى موقع زائد على موقعه فى الخطاب الأول [2].

فكما ثبت جنانه بالخطاب الأول أن لا يهتم بمكائد أعدائه ومسارعتهم فى الكفر وإعراضهم عنه ، حذر بالخطاب الثانى من ملاينتهم فى إبلاغهم قوارع القرآن وأحكامه وشرائعه ، خشية إعراضهم أو أذاهم [3].

ويقول الدكتور على عبد الواحد وافى :

يتجه النداء فى القرآن الكريم إلى رسولنا (ﷺ) بصيغة [يا أيها الرسول] حينما يكون الحديث عن رسالته العامة ، أو عما يعترضها من معوقات، وذلك كما فى هاتين الآيتين، ويتجه النداء بصيغة

---

(1) صحيح البخاري . ب / من ينكب في سبيل الله ١٠٣١/٥، ح ٢٦٤٨.

(2) الكشاف : ٦٣١/١ ، التحرير والتنوير ٢٦٣/٦.

(3) التحرير والتنوير : ٢٥٧/٦.

[يا أيها النبى] وذلك حينما يكون الغرض توجيه الرسول (ﷺ) في شأن عام أو خاص به وبأهله[1].

وبعد ذلك التطواف يتضح أن وصف النبى (ﷺ) بوصف الرسالة يفيد التشريف والتكريم للرسول (ﷺ). كذلك فى ندائه بهذا الوصف فيه تسلية للنبى (ﷺ) على أبلغ وجه فلا يحزن على مسارعتهم فى الكفر وإن كان فى الظاهر نهى لهم بأن يسارعوا فى الكفر لو كانوا يفقهون .

كذلك فيه بيان عموم رسالته (ﷺ) فالله عز وجل لم يحدد ولم يبين مَنِ الذين يبلغهم فتكون الرسالة عامة .

ثم إن الله عز وجل قد نادى محمدا (ﷺ) بوصف الجماعة وذلك فى قوله تعالى [يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم][2] وقد اختلف العلماء فى توجيه هذا النداء الذى بلفظ الجمع حيث إنَّ الظاهر غير ممكن لأن الرسل إنما أرسلوا متفرقين فى أزمنة مختلفة

---

(1) بحث للدكتور/ علي عبد الواحد وافي ص ٩١ بعنوان : [نداء المخاطبين في القرآن أسراره وبلاغته] مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة – العدد الثامن ١٣ ٩٨هـ / ١٩٧٨م .

(2) المؤمنون : ٥١.

قال الأمام أبو السعود: إنه نداء وخطاب له (صلى الله عليه وسلم) ، والجمع للتعظيم على دأب العرب فى مخاطبة الواحد بلفظ الجمع، وفيه إبانة لفضله وقيامه مقام الكل فى حيازة كمالاتهم [1].

* * *

(1) إرشاد العقل السليم لأبي السعود : ١٣٨/٦، وروح البيان ٦٢/٦ لإسماعيل حقي ط/ دار إحياء التراث العربي .

المبحث الثالث

النداء بصفة النبوة

نادى الله عز وجل محمدا (ﷺ) بوصف النبوة فى مواضع كثيرة وذلك إشعارا برفعة قدره وعلو منزلته، واعتناء بمضمون الخطاب وما يدل عليه من أوامر وتعاليم عظيمة . ومن هذه النداءات :

أولاً : نداؤه (ﷺ) بتنفيذ بعض ما كلف به من أحكام.

قال تعالى [يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين][1].

افتتح الله عز وجل هذه الآية بنداء النبي (ﷺ) بوصف النبوة وذلك إشارة وإشعار بأن هذا الافتتاح بوصف النبوة أساس في علة الحكم بالكفاية والحفظ والتأييد والنصر وتخصيص النبي بهذه الكفاية لتشريف مقامه (ﷺ) بأن الله عز وجل يكفى أمته من أجله .

وهذا القول هو مقتضى كمال التوحيد ، وهو كفاية الله للنبي (ﷺ) له ولأمته وذلك ما جاء فى قول الله تعالى : [الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله

---

(1) الأنفال : ٦٤.

ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء] [1].
فالحسبة مقتضى التوكل ، وذلك إنما يكون مع الله وحده . قال تعالى [وعلى الله فليتوكل المؤمنون] [2] وقال عز قائلا [وعلى الله فليتوكل المتوكلون] [3]. فالتوكل لا يكون إلا على الله عز وجل بدلالة تقديم الخبر ــ الجار والمجرور ــ على المبتدأ فقصد سبحانه فى الآيتين السابقتين التوكل عليه وهذا ما يسمى عند البلاغيين بأسلوب القصر والحصر فمن كان الله عز وجل كافيه وناصره فلن يغلب أبدا.

وقد قال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله مالنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة والله [4] وهذا الذى قاله أبو جهل – لعنه الله – يدل دلالة واضحة على أن الله كافل وناصر الرسول (ﷺ) ويتولاه برعايته وعنايته ، وذلك فيه ما فيه من قوة معنوية للرسول (ﷺ) . وقد يكون معنى الآية [5] [يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين] .

---

(1) آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤.

(2) إبراهيم : ١١.

(3) ابراهيم : ١٢.

(4) البحر المحيط لأبي حيان : ٥٠٠/٤ ط/ دار الكتب العلمية – لبنان – بيروت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

(5) شرح صحيح البخاري لابن بطال البكري القرطبي ٦٦/١، ط/ مكتبة الرشد السعودية – الرياض– ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م ط/ الثانية .
=

قال الكسائى : أى حسبك الله ناصرا وكافيا أو حسبك من اتبعك من المؤمنين ببذل أنفسهم دونك .

ثم يقول الله عز وجل [ياأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون] [1].

وهذا تكرار للنداء مرة أخرى لنبينا (ﷺ) وذلك تكريما له ورفعة لقدره وللتنويه بشأن الكلام الوارد بعد النداء وإظهارا لكمال الاعتناء بشأن المأمور به، وهو المبالغة فى الحث على القتال. وهذا الكلام فى معنى القصد بالنسبة للآية التى قبلها، لأنه لما تكفل الله عز وجل له الكفاية، وعطف المؤمنين بإسناد الكفاية إليهم، أحتيج إلى بيان كيفية كفايتهم، وتلك هى الكفاية بالذب عن الحوزة وقتال أعداء الله . فالتعريف [القتال] للعهد وهو القتال الذى يعرفونه ، أعنى قتال أعداء الدين والتحريض المبالغة فى المطلب[2].

فالله عز وجل بين ووضح فى هذه الآية مقومات النصر وتتلخص فى القتال، وبذل الوسع والطاقة والجد فيه ، وإخلاص البلاء فى ميدانه .

وتفسير البحر المحيط ٥١٥/٤ ، والتحرير والتنوير ٦٥/١٠، وتفسير المنار ٧٥/١٠.

(1) الأنفال : ٦٥.

(2) التحرير والتنوير : ١٥٤/٩.

وقوله تعالى [إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين .....] مضمونها هو الأمر بالثبات الذي ينفرد به المؤمن دون الكافر .ثم إن سر هذا التكليف الذي يفوق الطاقة في اعتبار العادة يرجع إلى معونة الله عز وجل التي لا يغلبها غالب وإلى قوة إيمان الصحابة رضي الله عنهم .

يقول الرازي: واعلم أن هذا التكليف إنما حسن لأنه مسبوق بقوله تعالى [حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين] فلما وعد المؤمنين بالكفاية والنصر كان هذا التكليف سهلا ، لأن من تكفل بنصره فإن أهل العالم لا يقدرون على إيذائه[1].

ثم إن السر في اختيار هذين العددين (العشرون والمائة) هو إنه ورد على وفق الواقعة فقد كان الرسول (ﷺ) يرسل السرايا والغالب أن تلك السرايا ما كان ينتقص عددها عن العشرين ، وما كانت تزيد عن المائة ، فلهذا المعنى ذكر الله هذين العددين [2].

وقال ابن عاشور : وذكر فى جانب جيش المسلمين فى المرتين عدد العشرين وعدد المائة، وفى جانب جيش المشركين المائتين وعدد الألف، إيماءً إلى قلة جيش المسلمين فى ذاته ، مع الإيماء إلى أن ثباتهم لا يختلف باختلاف حالة عددهم فى أنفسهم ، فإن العادة أن زيادة عدد الجيش تقوى نفوس أهله، ولو مع كون نسبة عددهم من عدد

---

(1) التفسير الكبير : ٧/٤٣٠.

(2) مرجع سابق بتصرف يسير : ٧/٤٣٠.

عدوهم غير مختلفة ، فجعل الله الإيمان قوة لنفوس المسلمين تدفع عنهم وهن استشعار قلة عدد جيشهم فى ذاته [1].

ثم إن الله عز وجل سلب الفقه والفقاهة عن الذين كفروا فقال [من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون] ، فالتعبير بالموصول هنا والتعريف به إيماء إلى وجه بناء الخبر الآتى : وهو سلب الفقاهة عنهم.

والباء فى قوله [بأنهم] للسببية أى بعدم فقههم ، وإجراء نفى الفقاهة صفة [لقوم] دون أن يجعل خبرا فيقال ذلك بأنهم لا يفقهون .

وذلك لقصد إفادة أن عدم الفقاهة صفة ثابتة لهم، لئلا يتوهم أن نفى الفقاهة عنهم فى خصوص هذا الشأن، وهو شأن الحرب المتحدث عنه .

والفقه من الأمور الخفية، والمراد نفى الفقه عنهم من جانب معرفة الله عز وجل بقرينة تعليق الحكم بهم بعد إجراء صلة الكفر عليهم وإنما جعل الله الكفر سببا فى انتفاء الفقاهة عنهم .

وذلك لأن الكافر من شأنه إنكار ما ليس بمحسوس فصاحبه ينشأ على إهمال النظر، وعلى تعطيل حركات فكره ، فهم لا يؤمنون إلا بالأسباب الظاهرية، فيحسبون أن كثرتهم تجلب لهم النصر على الأقلين

---

(1) التحرير والتنوير : ١٩٢/٦.

لقولهم " إنما العزة للكاثر" ولأنهم لا يؤمنون بما بعد الموت من نعيم وعذاب فهم يخشون الموت فإذا قاتلوا ما يقاتلون إلا فى الحالة التى يكون نصرهم فيها أرجح، والمؤمنون يعولون على نصر الله عز وجل، ويثبتون للعدو رجاء إعلان كلمة الله، ولا يهابون الموت فى سبيل الله لأنهم موقنون بالحياة الأبدية بعد الموت [1].

فكان هذا النداء الذى أعيد مرة أخرى تنويها بشأن الكلام الوارد بعد النداء وكان قد سبق هذا النداء النداء الأول وهو تكفل الله عز و جل للنبى – صلى الله عليه وسلم– وعطف المؤمنين – أيضا – فى إسناد الكفاية إليهم احتيج إلى بيان كيفية كفايتهم ، وتلك هى الكفاية بالذب عن الحوزة وقتال أعداء الله. فهذه الآية فيها إبراز للقوة الإيمانية للنبى والمؤمنين معه ، فكان النبى مقداما متقدما للصفوف وكذلك صحابته ومواقفهم مشهودة معروفة فى بدر وغيرها .

ثم إن من رحمة الله بالمؤمنين نسخ هذا الأمر فى الآية التى بعدها فقال: [الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا .....] [2].

وروى البخارى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: لما نزلت [إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين] شق ذلك على المسلمين، حين فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ، فجاء التخفيف، فقال [الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم

---

(1) التحرير والتنوير : ١٩٣/٦.

(2) الأنفال : ٦٦.

مائة صابرة يغلبوا مائتين] قال : فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم [1].

وهذا لا يمنع أن يستمر البعض على ما كان قبل التخفيف والدليل على ذلك ما حدث فى غزوة مؤتة فقد كان المسلمون ثلاثة آلاف وكان الروم مائتى ألف .

كذلك مما جاء فى القرآن من النداء للنبى (ﷺ) توجيه القرآن لأسرى بدر، قال تعالى [يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم][2].

فهذه الآية والتى بعدها وهى قوله تعالى [وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم] [3] متممتان للكلام فى أسرى بدر، حيث أمر النبى (ﷺ) أن يرغبهم في الإسلام وبيان ما فيه من خيري الدنيا والآخرة ، وبتهديدهم وإنذار عقاب بقائهم على

---

(1) صحيح البخاري : ك التفسير ب / الآن خفف الله عنكم : ١٧٠٧/٤ ح ٤٣٧٦.

(2) الأنفال : ٧٠.

(3) الأنفال : ٧١.

الكفر وخيانته (ﷺ) ويتضمن ذلك البشارة بحسن العاقبة والظفر له ولمن اتبعه من المؤمنين [1].

وهذا الخطاب للنبيّ (ﷺ) الذى يتعلق بحال سائر بعض الأسرى، بعد أن كان الخطاب متعلقا بالتحريض على القتال . وقال الفخر الرازى فى سبب نزول هذه الآية " اعلم أن الرسول (ﷺ) لما أخذ الفداء من الأسارى وشق عليهم أخذ أموالهم منهم ذكر الله هذه الآية استمالة لهم فقال رحيم : يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى، قال ابن عباس – رضى الله عنهما – : نزلت فى العباس وعقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحرث، كان العباس أسيرا يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس وكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر، فلم تبلغه التوبة حتى أسر فقال العباس كنت مسلما إلا أنهم أكرهونى فقال – عليه السلام –: " إن يكن ما تذكره حقا فالله يجزيك " فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا . حتى قال العباس : فأبدلنى الله خيرا مما أخذ منى وأنا أرجو المغفرة من ربى" [2].

وقيل : إن الخطاب للعباس وغيره [3].

ففى هذه الآية أمر للنبى (ﷺ) أن يقول للأسرى الذين فى يده وفى يد أصحابه ممن أخذ منهم الفداء : إن يعلم الله فى قلوبكم إسلاما

---

(1) تفسير المنار : ١٠ / ١٠٠.

(2) التفسير الكبير : ١٥/١٦٣.

(3) مرجع سابق : ١٥/٢١١.

وتصديقا يؤتكم خيرا ما أخذ منكم من الفداء ويغفر لكم جرمكم الذى أجرمتموه بقتالكم نبى الله وأصحابه وكفركم بالله وإن يريدوا غدرا وخيانة بإظهار خلاف ما فى أنفسهم، فقد خانوا الله من قبل حيث خالفوا أمره من قبل وقعة بدر فأمكن منهم المؤمنين ببدر والله عليم بما يقولون بألسنتهم ويضمرونه فى نفوسهم، حكيم فى تدبير أمور خلقه[1].

والخطاب هنا فى هذه الآية هو خطاب الخاص المراد منه العموم فافتتح الخطاب بالنداء على النبى (ﷺ) والمراد سائر من يملك ذلك .

وبعد ففى هذه الآيات الثلاث عبر وعظات :

أولاها : أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين وأفقه منهم بكل علم وفن يتعلق بحياة البشر وارتقاء الأمم (٢).

ثانيها : يجب على المؤمنين ترغيب الأسرى فى الإيمان وإنذارهم عاقبة كفرهم وخيانتهم .

ثالثهما : بشارة المؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة إذا ما استمسكوا بأسباب النصر ماديا ومعنويا .

---

(١) جامع البيان : ١٠/٣٤ – ٦ م ط/ مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ ت/ أحمد شاكر.

(٢) التحرير والتنوير.

رابعهما : إن الإسلام لا يستبقى الأسرى لديه للإذلال والاستغلال إنما يستبقيهم ليوقظ فى فطرتهم نور الحق .

خامسهما : إن هؤلاء الأسرى إذا ما آمنوا واتقوا عوضهم الله عما أخذ منهم بل ويغفر لهم ما فرطوا فيه فهو الغفور الرحيم .

* كذلك من آياتذذ نداء الله عز وجل لرسوله بوصف النبوة فى تنفيذ ما كلف به من أحكام قوله تعالى [يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير] (١).

وفى هذه الآية نداء للنبى (ﷺ) يأمره الله عز وجل بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم والشدة معهم وعدم اللين ، وسبب أمره (ﷺ) بهذا لأنه جبل على الرأفة والرحمة بالأمة فأمره أن يتخلى عن جبلته فى حق الكفار والمنافقين وأن لا يتسامح معهم كما كان شأنه من قبل ، وجمع فى الآية جهاد المنافقين والكفار وذلك لإلقاء الرعب فى قلوبهم ، فإن كل واحد منهم يخشى أن يظهر أمره فيعامل معاملة الكفار والمحاربين ، فيكون ذلك قاطعا لدابرهم، ومستأصلا لشوكتهم " (٢).

أما جهاد الكفار فظاهر ، وأما جهاد المنافقين فمختلف فى المراد به ، لأنهم غير مظهرين للكفر بل ظاهرهم الإسلام ، وهم مع المسلمين

---

(١) التوبة : ٧٣.

(٢) التحرير والتنوير : ١٠/٢٦٦.

فى غالب أحوالهم قال ابن عباس: أمره الله بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان ، وأذهب الرفق عنهم [1].

فإن قيل كيف تركهم رسول الله (ﷺ) مقيمين بين أظهر أصحابه مع علمه بهم ؟

قيل : إن الله تعالى إنما أمر بقتال من أظهر منهم كلمة الكفر ، ثم أقام على إظهاره ما أظهر من ذلك، وأما من إذا اطلع عليه منهم أنه تكلم بكلمة الكفر وأخذ بها أنكرها ورجع عنها وقال : إني مسلم، فإن حكم الله فى كل من أظهر الإسلام بلسانه أن يحقن بذلك دمه وماله، وإن كان معتقدا غير ذلك وتوكل سبحانه بسرائرهم ، ولم يجعل للخلق البحث عن السرائر [2].

فلا ريب حينئذ أن يكون جهاد المنافقين فيه مشقة عظيمة لأنه موقف وسط وحرج بين رحمته (ﷺ) ولينه مع المؤمنين المخلصين، وبين شدته فى قتاله الأعداء الحربيين ، مما يجب فيه إقامة العدل واجتناب الظلم.

---

(1) تفسير الطبري : ١٠/١٢٦.

(2) تفسير الطبري : ١٠/١٢٧، وابن كثير : ٢/٣٧١.

ثانياً : نداؤه (ﷺ) فى بعض شئون خاصة به : ■

من الآيات الكريمة التىنادت النبى (ﷺ) فى شئون خاصة به قوله تعالى: [يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وإن كنتن ترد الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما] (١).

أما عن وجه تعلق هذا النداء بما قبله من النداء الأول فيقول الفخر الرازى: وهو أن مكارم الأخلاق منحصرة فى شيئين، التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله ، ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه (ﷺ) إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله [يا أيها النبى اتق الله] (٢).

ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة ، وبدأ بالزوجات فإنهن أولى الناس بالشفقة ولهذا قدمهن فى النفقة (٣).

وقد افتتح الله تعالى هذه الآية بالنداء بلفظ النبى تنبيها على أن ما سيذكر بعد النداء له مزيد اختصاص به ، وهو غرض تحديد سيرة أزواجه معه سيرة تناسب مرتبة النبوة ومقام الرسالة (٤).

---

(١) الأحزاب : ٢٨ – ٢٩.

(٢) الأحزاب : ١.

(٣) مفاتيح الغيب : ٢٠٦/٢٥.

(٤) التحرير والتنوير : ٣١٥/٢١.

وفى وصف النبوة إشارة إلى عظمة قدره ومكانته، وأنه هو النبى المنبأ من قبل الله عز وجل فهو نداء له أهمية كبرى فى هذا السياق لأن هذا التخيير يبين أن كل نفس رهينة بما تقدم من خير وشر، فكل مأخوذ بكسب يده لا يغنى أحد عن أحد شيئا، حتى إن هذا النبى الجليل القدر العظيم المكانة عند الله لا يغنى شيئا عن أزواجه. وقوله تعالى [قل لأزوجك] للدلالة على كمال العناية بهذا الأمر لأنه وقع بعد النداء، حيث كان النداء تنبيها وإيقاظا وتهيئة للعقل والحس حتى يتلقى هذا الأمر تلقيا واعيا، ثم أنه يبين أيضا حرص القرآن على إيقاظ الإنسان وبعث وعيه، واستنارة حسه وشعوره وملكاته، ونفى الغفلة والجمود والركون، عن النبى الإنسان، أو شئ آخر فى هذا الأمر وهو: صرف الكلام عن مخاطبة أزواج النبى (ﷺ) خطابا مباشرا فى هذا المقام اللائى يخيرن فيه بين الله ورسوله والدار الآخرة والحياة الدنيا حتى يكون الخيار خيارا خالصا يترك فيه الأمر لمحض إرادة المخير وفكره ، فقد يكون فى إقبال الله عليهن بالخطاب ما يحبب إليهن اختيار الله ورسوله ، ولهذا قدم فى الاختيار قوله تعالى: [وإن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها] على قوله تعالى: [وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة] [1].

وروى أكثر المفسرين أن سبب نزول هذه الآيــة هــو مطالبــة نسائه (ﷺ) بمزيد من النفقة .

---

(1) من أسرار التعبير القرآني : ١٦٣.

فقد أخرج مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله (ﷺ) فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم قال : فأذن لأبى بكر فدخل ثم أقبل عمر فأستأذن له فوجد النبى (ﷺ) جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا ، قال : فقال لأقولن شيئا أضحك النبى (ﷺ) فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك رسول الله (ﷺ) وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول تسألن رسول الله (ﷺ) ما ليس عنده، فقلن: والله لا نسأل رسول الله (ﷺ) شيئا أبدًا ليس عنده، ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين ثم نزلت عليه هذه الآية [يا أيها النبى قل لأزواجك] . قال: فبدأ بعائشة ... الحديث " (١).

ومن هنا نعلم أن النبى (ﷺ) قد اختار لنفسه ولأهله عيشة الكفاف لا عجزا عن حياة المتاع بل قناعة برضا الله عز وجل وتعليما للأمة بأن ترضى بما قسم الله لها من عيش بعد أخذ الأسباب أما النتائج فعلى الله وحده فالرسول (ﷺ) عاش حتى فتحت له الأرض ورغم ذلك يمر الهلال ثم الهلال ثم الهلال ولا يوقد فى بيته نار أو ما شبع من طعام ثلاثة أيام متوالية.

---

(١) صحيح مسلم : ١١٠٤/٢ ح ١٤٧٨ ك / الطلاق، ب / بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية.

وسر تقديم التمتيع على التسريح مع أنه فى الواقع بعده ، وذلك دلالة على كرمه عليه الصلاة والسلام وحسن خلقه وفى ذلك إيناس لهن وقطع لمعاذيرهن من أول الأمر، حيث سألنه ثياب الزينة وزيادة النفقة ، وتوسعة الحال [1].

ولما اخترن رسول الله (ﷺ) رؤى الفرح فى وجهه مسرورا بذلك، فشكرهن الله على ذلك فجعلهن أمهات المؤمنين، وقصره عليهن فلم ينكح بعدهن، قال تعالى: [لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك] [2].

فرفع الله محلهن وأجل قدرهن، وجعلهن أزواجه فى الدنيا والآخرة ، وشاهدن من أحواله وأفعاله وأقواله بالليل والنهار ما لم يكن لغيرهن ، فكن أشد تعلقا برسول الله (ﷺ) وأحرص الناس على اقتفاء أثره والتمسك بسنته .

وفى هذه الحادثة حادثة التخيير نقف أمام الرغبة فى نفوس نساء النبى (ﷺ) فى المتاع كما نقف أمام صورة الحياة البيتية للنبى (ﷺ) ونسائه - رضى الله عنهن- وهن يراجعن زوجهن فى أمر النفقة فيؤذيه هذا، ولكنه لا يقبل من أبي بكر وعمر- رضى الله عنهما - أن يضربا عائشة وحفصة على هذه المراجعة ، فالمسألة مسألة مشاعر وميول بشرية، ويظل الأمر كذلك حتى يأتيه أمر الله

---

(1) البحر المحيط : ٢٢٧/٧.

(2) الأحزاب : ٥٢.

بتخيير نسائه ، فيخترن الله ورسوله والدار الآخرة اختيارا لا إكراه فيه ولا ضغط ، فيفرح قلب النبى (ﷺ) بذلك [1].

* كذلك من الآيات التى جاء فيها نداء النبى (ﷺ) فى بعض شئونه الخاصة قوله تعالى: [يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم]

أولا : هذا هو الموضع الوحيد الذى جاء فيه الاستفهام عقيب ندائه – صلى الله عليه وسلم– .

ثانيا : إن فى ندائه (ﷺ) بـ يا أيها النبى من حسن التلطف به والتنويه بشأنه (ﷺ) والإجلال لمنصبه وتنظيم لشأنه أن يراعى مرضات أزواجه وأن يشق على نفسه .

ثالثا : كذلك عتاب له (ﷺ) على ما حرم على نفسه ابتغاء مرضات بعض أزواجه .

أما عن سبب نزول هذه الآية فقد أخرج البخاري في صحيحه قال: حدثنا ابراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسف عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد ابن عمير عن عائشة – رضى الله عنها– قالت كان رسول الله (ﷺ) يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها

---

(1) في ظلال القرآن : ٦/٧٣.

فواطيت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له أكلت مغافير أى أجد منك ريح مغافير قال: لا ولكن كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت لا تخبرى بذلك أحدًا (١).

وجاء فى الفتح، قال ابن حجر، وقع عند سعيد بن منصور بإسناد صحيح إلى مسروق قال : حلف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لحفصة لا يقرب أمته وقال: " هى على حرام " فنزلت الكفارة ليمينه وأمر أن لا يحرم ما أحل الله. وقال ابن حجر: فيحتمل أن تكون الآية نزلت فى السببين معا (٢).

ويجمع بين السببين بأن الآية نزلت فيهما جميعا لاحتمال تعدد الحوادث من باب تعدد الأسباب والنازل واحد .

وهذا الاستفهام [لم تحرم ما أحل الله لك] للنفي المصحوب بالعتاب منه سبحانه لنبيه (صلى الله عليه وسلم) .

والمعنى : يا أيها النبى لماذا حرمت على نفسك ما أحله وأباحه الله تعالى لك ، أفعلت ذلك ابتغاء مرضات أزواجك .

---

(١) صحيح البخاري : ١٨٦٥/٤ ك/ التفسير ب / (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ...) ح ٤٦٢٨.

(٢) فتح الباري لابن حجر ٦٥٧/٨ ط/ دار المعرفة – بيروت – ١٣٧٩هـ.

قال بعض العلماء : ناداه بلفظ النبى إشعارًا بأنه الذي نبئ بأسرار التحليل والتحريم الإلهى، والمراد بتحريمه ما أحل له، امتناعه منه، وحظره إياه على نفسه، وهذا المقدار مباح ليس فى ارتكابه جناح (١).

فالتحريم منه (صلى الله عليه وسلم) كان امتناعا عن العسل أو مارية وهو امتناع أكده باليمين الوارد فى الحديث السابق مع اعتقاد حله ، ولذا نزلت الآيات وفيها الحث على التحلل من يمينه، والتكفير عنه، قال تعالى [قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم](٢).

وهذا المقدار مباح والمباح جائز وقوعه من الأنبياء ولا يقدح ذلك فى عصمتهم .

وقيل له : [لم تحرم] رفقا به وشفقة عليه وتنويها لقدره بحيث لا يجب عليه أن يضيق على نفسه فى سبيل إرضاء أحد فلا تمنع نفسك أيها النبى وتحرمها من الاستمتاع بما أحله الله لك ، مما لك فيه رغبة ومتعة وسرور .

وقوله تعالى: [تبتغى مرضات أزواجك]هذا القيد هو محط العتاب فى الحقيقة وليس مجرد منعه (صلى الله عليه وسلم) نفسه من المتعة بالمباح، لأنه – صل الله عليه وسلم – كثيرا ما منع نفسه من بعض

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي .

(٢) التحريم : ٢.

المباحات التى ينعم بها الناس وكأن قوله تعالى: [يا أيها النبى لم تحرم ....] منة وتعظيم من الله عز وجل لنبيه (ﷺ) برفع الحرج عنه .

وقوله تعالى: [والله غفور رحيم] تسلية للرسول (ﷺ) عما أصابه من وقع هذا اللوم ومن أثر هذا العتاب، وإرشاد له (ﷺ) بأن ما فعله داخل تحت مغفرة الله تعالى ورحمته (١).

فافتتاح هذه السورة بنداء النبى (ﷺ) تنبيه على أن ما سيذكر بعده مما يهتم به النبى (ﷺ) والأمة، لما اشتمل عليه من بيان الأمور وذكر الأحكام والتوجيهات المناسبة لها، ولأن سبب النزول كان مرتبطا به (ﷺ) وفى بيته (٢).

ثم إننا نجد الزمخشرى وصف النبى (ﷺ) بما لا يليق وجنابه الكريم فقال : وكان هذا زلة منه لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله لأن الله عز وجل إنما أحل ما أحل لحكمة ومصلحة عرفها فى إحلاله، فإذا حرم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة (٣).

---

(١) التفسير الوسيط د/ سيد طنطاوي – م ١٤/ ٤٦٩ ط/ دار المعارف بمصر ١٩٩٣م.

(٢) التحرير والتنوير : ٣٤٦/٢٨.

(٣) الكشاف : ٥٦٤/٤.

وهذه سقطة من الزمخشرى وسوء صنيع فلم يحفظ مقام النبـــى (ﷺ) ومقام النبوة فقد زل قلمه ولسانه وزلت يده بما كتب وخط بها ووصفت رسول الله (ﷺ) بما ينبغى أن يطهرها منه بل ويكرم مـــن أعلى الله قدره ورفع له ذكره وشرح له صدره ووضع عنه وزره ، فهذا من الزمخشرى محض افتراء وتقول بما لا ينبغي فالنبى (ﷺ) براء منه، ولكن نقول إنما عاتبه ربه عز وجل رفقا وتنويها بجلالـــة قـــدره وإجلالا لمنصبه (ﷺ) وهذا فيه مزيد اعتناء واهتمام به (ﷺ) .

ثالثاً : نداؤه (صلى الله عليه وسلم) في بعض شئون خاصة به وبالمؤمنين :-

ومن هذه الآيات التى نادى الله عز وجل نبيه محمدا (صلى الله عليه وسلم) قوله تعالى: [يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما] (١).

لما بين الله عز وجل فى الآية السابقة بأن من يؤذى المؤمنين والمؤمنات سوف يبوء بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة أتبع ذلك بالأمر باتقاء أسباب الأذى وفى هذا إقامة المصالح وإماتة المفاسد فجاء الخطاب إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) بأمره بأن يبلغ نساء الأمة بما يتعلق بما يكن عليه من صون وعفاف يدرأ عنهن أطماع أهل الريبة ويلقى عليهن رداء الجلال والكرامة اللائق بالمرأة المسلمة.

أما عن سبب نزول هذه الآية فيقول الإمام البخارى: حدثنا يحى بن بكير قال: حدثنا الليث قال: حدثنا عقيل عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة - رضى الله عنها - : أن أزواج النبى (صلى الله عليه وسلم) كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح فكان عمر يقول للنبى (صلى الله عليه وسلم) أحجب نساءك فلم يكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يفعل. فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبى (صلى الله عليه وسلم) ليلة من الليالي عشاءً وكانت

---

(١) الأحزاب : ٥٩.

امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك يا سودة حرصا على أن ينزل الحجاب فأنزل الله آية الحجاب(١).

وابتدى بأزواج النبي (ﷺ) وبناته لأنهن أكمل النساء فذكرهن من ذكر بعض أفراد العام للاهتمام به (٢).

وقال الإمام الآلوسي عن تعدية الفعل بـ (على) في قوله تعالى: (يدنين عليهن) قال: ولعل نكتة التضمين الإشارة إلى أن المطلوب تستر يأتى معه رؤية الطريق إذا مشين (٣).

والحكمة من ذلك التستر بإسدال الجلابيب عليهن هى درء التعرض لهن بسوء وأذى وذلك لتسترهن بالحجاب والعفة، فلا يتعرض لهن أحد ولا يلقين ما يكرهن، لأن المرأة إذا خرجت سافرة متبرجة كانت مظنة التعرض للتحرش لأنها متبرجة فيطمع فيها الفساق والمتنطعين بالطرقات فامتثال أوامر الله عز وجل بخروجها فى غاية

---

(١) صحيح البخاري : ٦٧/١ ح ١٤٦ ، وتفسير ابن أبي حاتم الرازي : ٣١٥٣/١٠ / ٣١٥٤ ح / ١٧٧٨١ وح /١٧٧٨٢ ط/ المكتبة العصرية صيدا – ت/ أسعد محمد الطيب .

(٢) التحرير والتنوير : ٣٢٨/٢١.

(٣) روح المعاني : ٨٩/٢٢٥.

التستر ذلك أحفظ لهن، وليكن لهن أسوة فـى أزواج النبـى (ﷺ) وبناته، لأنهن إذا امتثلن هذه الأوامر كما التزم أزواجه (ﷺ) وبناته كن فى صحبتهن فى الآخرة إن شاء الله .

وإذا كان الأمر كذلك، فقد حذر المصطفى (ﷺ) من التبـرج وجاء ذلك فى القرآن والسنة قال تعالى: [ولا تبرجن تبـرج الجاهليـة الأولى] (١).

وقال [ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينـتهن ...] (٢) وقال [ولا يبدين زينتهن] (٣).

ومن السنة ما أخرجه مسلم فى صحيحه قال: حدثنى زهير بـن حرب حدثنا جرير عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسـول الله (ﷺ) : صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذنـاب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريـات ممـيلات مـائلات

---

(١) الأحزاب : ٣٣.

(٢) النور : ٣١.

(٣) النور : ٣١.

رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحهـــا وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا] (١).

وهذا تحذير شديد به من الكتاب والسنة لأن عواقب هذا الأمـــر وبال عظيم وشر كبير ومفسدة عظيمة وبهذا يكون الوحى قد سد هـــذا الباب، فدرء المفاسد مقدم.

رابعاً : نداؤه (صلى الله عليه وسلم) فى تشريعات عامة للمؤمنين : ■

ومن هذه النداءات التى نادى الله عز وجل نبيه (صلى الله عليه وسلم) فـــى بعض التشريعات العامة للمؤمنين، قوله تعالى: [يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجـــوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا](٢).

قال الإمام الفخر الرازى: إن الله عز وجل نادى النبى (صلى الله عليه وسلم) ثم خاطب أمته لما أنه سيدهم وقدوتهم، فإذا خوطب خطاب الجمع كانت

---

(١) صحيح مسلم : ٢١٩١/٤ ح ٢١٢٨ وانظر موطأ مالك : ١٣٣٩/٥ ح ٣٣٨٤ ط/ مؤسسة زايد ابن سلطان آل نهيان. الطبعة الأولى ١٤٢٥هـــ - ٢٠٠٤م ت/ محمد مصطفى الأعظمي .

(٢) الطلاق : ١.

أمته داخلة فى ذلك الخطاب، ثم قال: والمعنى الثانى: علـى الإضـمار، والمعنى : يا أيها النبى قل لهم: إذا طلقتم النساء، فأضمر القول (١).

وهذا أسلوب من أساليب التشريع ، كما قال الطاهر بن عاشـور قال: توجيه الخطاب إلى النبى (ﷺ) أسلوب من أسـاليب التشـريع المهتم به فلا يقتضى ذلك تخصيص ما يذكر بعده النبى (ﷺ)، مثل [يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتـال] (٢) لأن النبـي (ﷺ) الذي يتولى تنفيذ الشريعة في أمته وتبيين أحوالها، فإذا كان التشـريع الوارد يشمله ويشمل الأمة جاء الخطاب مشتملاً على ما يفيد ذلك مثـل صيغة الجمع في قوله هنا : [إذا طلقتم النساء] (٣).

فتخصيص النبى (ﷺ) بالنداء ثم مجئ الخطاب عامـا لـه وللأمة لأن النبى (ﷺ) قدوتهم وإمامهم .

واختيار لفظ [النبى] فيه إشارة ودلالـة علـى علـو مرتبتـه ورفعـة قدره (ﷺ).

---

(١) التفسير الكبير : ٥٦٣/٣٠ ، دار إحياء التراث العربي .

(٢) الأنفال : ٦٥.

(٣) التحرير والتنوير : ٢٦٤/٢٨.

وقال الآلوسى: إنه بعد ما خاطبه (ﷺ) بالنداء صرف سبحانه الخطاب عنه لأمته تكريما له (ﷺ) لما فى الطلاق من الكراهة فلم يخاطب به تعظيما وإجلالا لقدره (١).

وروى بعض المفسرين فى سبب النزول أنها نزلت فى طلاق النبى (ﷺ) لحفصة - رضى الله عنها - منهم ابن كثير(٢) وابن أبي حاتم (٣)، وابن جرير الطبري (٤).

وإن كان هذا الحديث صحيحا إلا أنه ليس سببا لنزول الآية لأنه لم يثبت أن النبى (ﷺ) طلق حفصة وهى حائض أو خلافه. ومن العلماء من قال أن سبب نزولها هو طلاق عبد الله بن عمر وقد ورد حديث طلاق عبد الله بن عمر لامرأته وهى حائض فى صحيح مسلم (٥).

---

(١) روح المعاني : ١٢٨/٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير : ١٤٢/٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٣٣٥٩/١٠.

(٤) تفسير ابن جرير : ٤٣١/٢٣.

(٥) صحيح مسلم : ١٠٩٣/٢ ح ١٤٧١ ب/ تحريم طلاق الحائض بغير رضاها .

وفى الصحيح ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر أنه طلق امرأته وهى حائض فذكر عمر لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتغيظ فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم قال " ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها فتلك العدة كما أمره الله" (١).

والذي يظهر أن هذه الآية هي تشريع جديد فلم تنزل لسبب معين.

خامساً : نداؤه (صلى الله عليه وسلم) بالأمر بالتقوى :-

ومن الآيات التى جاء فيها النداء بالتقوى والتحذير من طاعة الأعداء قوله تعالى [يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما](٢).

ففى هذه الآية نداء من الله عز وجل لنبيه بوصفه الشريف [النبى] ولم يناده باسمه كما قال يا آدم، ياموسى، يا عيسى، يا داود. كرامة وتشريفا وربئا بمحله وتنويها بفضله (٣).

---

(١) صحيح البخاري : ١٨٦٤/٤ ح ٤٦٢٥ ك / الطلاق.

(٢) الأحزاب : ١.

(٣) الكشاف : ٥١٥/٣.

وسبب نزولها ذكره البغوى فى تفسيره قال نزلت فى أبى سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبى الأعور وعمرو بن سفيان السُّلمى، وذلك أنهم قدموا المدينة فنزلوا على عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين، بعد قتال أحد، وقد أعطاهم النبى (ﷺ) الأمان على أن يكلموه. فقام منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وطعمة بن أبيرق، فقالوا للنبى (ﷺ) وعنده عمر بن الخطاب: ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل إن لها شفاعة لمن عبدها، وندعك وربك، فشق على النبى (ﷺ) قولهم، فقال عمر: يا رسول الله أئذن لنا فى قتلهم، فقال: إنى قد أعطيتهم الأمان، فقال عمر: اخرجوا فى لعنة الله وغضبه ، فأمر النبى (ﷺ) عمر أن يخرجهم من المدينة فأنزل الله تعالى [يا أيها النبى اتق الله .....] (١).

ووجه إيثار الكلام فى هذه الآية بوصف النبوة دون الرسالة هو أن السورة كلها مليئة بالأنباء المهمة وهى أشياء كثيرة كانت من أفعال الجاهلية فأراد الله أن ينبه رسوله (ﷺ) بها وأن يبطلها على يد رسوله (ﷺ) .

وقال صاحب أسرار التعبير القرآنى فى هذا المعنى :

---

(١) معالم التنزيل للبغوي : ٣١٢/٦ ط/ دار طيبة للنشر – الرابعة – ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

ففى هذه السورة بطلان الظهار ، وبطلان التبنى ، وإنباء بزواجه من زينب بنت جحش ، وإنباء بتخيير أزواجه ، وإنباء بأنه لا يحل له الزواج من بعد ذلك ولا التبديل بالأزوج ، وإنباء عن المنافقين والمرجفين فى المدينة ولهذا كثر وجود لفظ النبى فى هذه السورة وهو خمس عشر مرة كلها جاءت فى سياق إنباء بأمور مهمة وهذا من فنون البلاغة وهو حسن الابتداء ، وسماه البعض ببراعة الاستهلال(١).

وقال الطاهر بن عاشور هذا هو النداء الأول وافتتح به الغرض الأصلى لبقية الأغراض وهو تحديد واجبات رسالته فى تأدية مراد ربه تعالى على أكمل وجه دون أن يفسد عليه أعداء الدين أعماله (٢).

ثم إن الله عز وجل قال لرسوله (ﷺ) فى هذه الآية [اتق الله] وهنا يثار سؤال هل كان النبى (ﷺ) ــ وحاشاه ــ غير متق لله عز وجل وقد أجاب العلماء على هذا السؤال فقال الإمام الرازى :

الأول هو أمر بالمداومة أى دم على ما أنت عليه .

والثاني : وهو أن الملك يتقى منه عباده على ثلاثة أوجه : بعضهم يخاف من عقابه ، وبعضهم يخاف من قطع ثوابه ، وثالث يخاف من احتجابه، فالنبي (ﷺ) لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الأول ولا المعنى الثاني ، وأما الثالث فالمخلص لا يأمنه مادام في الدنيا وكيف

(١) من أسرار التعبير القرآني ص : ٨.

(٢) التحرير والتنوير : ١٧٨/٢١.

والأمور الدنيوية شاغلة ، والآدمي في الدنيا تارة مع الله وأخرى مقبل على ما لا بد منه وإن كان معه الله . وإلى هذا إشارة بقوله [إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى] (١).

فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور، لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) كل لحظة كان يزداد علمه ومرتبته حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة إلى ما هو فيه تركا للأفضل، فكان له فى كل ساعة تقوى متجددة فقوله [اتق الله] فهذا أمر بما ليس فيه (٢).

وأقول: وإن كان الخطاب هنا في صورته موجها إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ولكنه في حقيقة الأمر إنما هو إرشاد وتعليم للأمة، لتسلك الطريق المستقيم.

وقال بعض العلماء إن فى هذه الآية قصرا إضافيا فيقول الطاهر بن عاشور: والأمر للنبى بتقوى الله توطئة للنهى عن اتباع الكافرين والمنافقين ليحصل من الجملتين قصر تقواه على التعلق بالله دون غيره ، فصار مجموع الجملتين مفيدا معنى : يا أيها النبى لا تتق إلا الله ، فعدل عن صيغة القصر وهى أشهر فى الكلام البليغ وأوجز إلى ذكر جملتى أمر ونهى لقصد النص على أنه قصر إضافى أريد به أن لا يطيع الكافرين والمنافقين، لأنه لو اقتصر على أن يقال : لا تتق إلا الله ، لما

---

(١) فصلت : ٦.

(٢) تفسير الرازي : ١٦٤/٢٥ – ١٦٥.

أصاخت إليه الأسماع إصاخة خاصة، لأن تقوى النبى – صل الله عليه وسلم – ربه أمر معلوم فسلك مسلك الإطناب لهذا، كقول السموأل .

تسيل على حد الظبات نفوسنا ٠٠ وليست على غير الظبات تسيل

فجاء بجملتي إثبات السيلان بقيد ونفيه فى غير ذلك القيد للنص على أنهم لا يكرهون سيلان دمائهم على السيوف ولكنهم لا تسيل دماؤهم على غير السيوف..

وفائدة هذا الأمر والنهى في الآية الكريمة التشهير بأن النبي (ﷺ) لا يقبل أقوالهم ليأسوا من ذلك لأنهم كانوا يدبرون مع المشركين المكايد ويظهرون أنهم ينصحون النبي (ﷺ) ويلحون عليه بالطلبات نصحا تظاهرا بالإسلام [1].

والأمر و النهى في هذه الآية تحصيل حاصل، لأن النبي متق الله عز وجل ، والمنهيات لا يتصور وقوعها من النبي (ﷺ) وإنما المراد طلب الاستمرار على ما هو ملازم عليه النبي (ﷺ) من التقوى لله عز وجل، وكأن الله عز وجل يأمره بتقوى أخرى فوق هذه التقوى.

وعن اختصاص الكافرين والمنافقين بالذكر مع أن النبي (ﷺ) مأمور بأن لا يطيع أحدا إلا الله عز وجل .

---

(1) التحرير والتنوير : ١٧٩/٢١.

يقول الإمام الرازي : وذلك لوجهين أحدهما أن ذكر الغير لا حاجة إليه لأن غيرهما لا يطلب من النبي (ﷺ) الاتباع ولا يتوقع أن يصير النبي (ﷺ) مطيعا له .

والثاني : هو أنه تعالى لما قال : [ولا تطع الكافرين والمنافقين] منعه من طاعة الكل لأن كل من طلب من النبي (ﷺ) طاعته فهو كافر أو منافق لأن من يأمر النبي (ﷺ) بأمر أمر إيجاب معتقدا على أنه لو لم يفعله يعاقبه بحق يكون كافرا [1].

* * *

(1) مفاتيح الغيب : ٢٥/١٦٥.

المبحث الرابع

نداؤه (صلى الله عليه وسلم) بصفات أخرى

أولا : نداؤه بالمزمل :-

وذلك في قوله تعالى [يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا] [1].

وسبب نزولها كما ذكره الآلوسى في تفسيره قال : والجمهور على أنه (صلى الله عليه وسلم) لما جاءه الملك فى غار حراء بما حاوره رجع إلى خديجة رضي الله عنها فقال : زملونى فنزلت " يا أيها المدثر" وعلى أثرها نزلت " يا أيها المزمل"، وروى الطبراني عن جابر رضي الله عنه قال : لما اجتمعت قريش فى دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسما تصدر الناس عنه فقالوا : كاهن قالوا ليس بكاهن قالوا : مجنون قالوا ليس بمجنون ، قالوا : ساحر قالوا ليس بساحر ، قالوا : يفرق بين الحبيب وحبيبه ، فتفرق المشركون على ذلك فبلغ ذلك النبي صل الله عليه وسلم ، فتزمل في ثيابه وتدثر بها ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا أيها المزمل[2].

---

(1) المزمل : ١.

(2) روح المعاني : ١٠١/٢٩.

وسر هذا النداء بهذه الصفة وهذا الوصف يقول الإمام الألوسى : ونداؤه صل الله عليه وسلم بذلك تأنيس له وملاطفة على عادة العرب فى اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التى هو عليها [1].

وقال الإمام أبو السعود فى هذا الوصف : فالتعرض للوصف حينئذ للإشعار بعليته للقيام أو للأمر به فإن تحميله عليه الصلاة والسلام لأعباء النبوة مما يوجب الاجتهاد في القيادة [2].

ففي افتتاح هذه السورة بخطاب النبي صل الله عليه وسلم بهذا النداء تنبيها وإعلاما بأهمية ما سيوجه إليه ويكلف القيام به فقال له : يا أيها المتزمل بثيابه ومتغطى به انهض للقيام بأوامر ربك عز وجل واستعد للأمر العظيم الذي كلفت به وهو إبلاغ الرسالة للناس جميعا .

وفائدة الخطاب بهذا الوصف :

(١) تأنيس له وملاطفة على عادة العرب[3].

(٢) التنبيه لكل متزمل راقد ليله لينبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه[4].

---

(١) مرجع سابق : ١٠١/٢٩

(٢) إرشاد العقل السليم : ٣٧٦/٦.

(٣) روح المعاني : ١٠١/٢٩.

(٤) اللباب لابن عادل ٥٠٨٠/١ طبعة دار الكتب العلمية – بيروت .

ثانيا : نداؤه صل الله عليه وسلم بالمدثر : =

وهذا فى قوله تعالى [يا أيها المدثر] [1].

هذا النداء والذي قبله الذي خاطب الله عز وجل فيه رسوله (ﷺ) بصفة فيه وسبب نزول هذا النداء والذي قبله واحد . وهو ما أخرجه البخاري في صحيحه قال : حدثنا عبد الله بن يوسف قال : حدثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب سمعت أبا سلمة قال : أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله (ﷺ) يحدث عن فترة الوحي " فبينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئت فجثيت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلي فقلت : زملونى زملونى فأنزل الله تعالى [يا أيها المدثر قم فأنذر إلى قوله فاهجر] [2].

وفى هذا النداء ملاطفة من الله عز وجل لنبيه (ﷺ) فى الخطاب ، فهذا النداء من الكريم إلى الحبيب حيث ناداه بحاله وعبر عنه بصفته فلم يقل : يا محمد [3].

---

(1) المدثر : ١.

(2) صحيح البخاري : ١٨٧٦/٤ ح ٤٦٤٢ ك/ التفسير ب / قوله "والرجز فاهجر" .

(3) اللباب ، لابن عادل : ٤٩٢/١٩.

وهذا كله يدل على عظم مكانة النبى (ﷺ) ، عند الله عز وجل وتأنيس منه سبحانه له (ﷺ) و ليظهر مكانته للناس جميعا إذا خاطبوه فليخاطبوه برفق ولين ولا يرفعوا أصواتهم عنده (ﷺ) تأدبا، حيث قال عز وجل : [لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا....] (١).

وقال : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ...) (٢).

وعليه فهذا النداء الإلهي كان بعد فترة من الوحي الأولى نداه ملقبا له بهذا اللقب الجميل تكريما وتلطفا معه ليقوم بحمل أعباء الدعوة إليه سبحانه وما أشد ثقلها فهي تحتاج إلى معونة وإعانة من الله سبحانه وجهد واجتهاد من الإنسان.

قال الطاهر بن عاشور : والظاهر أن هذه الآية أول ما نزل في الأمر بالدعوة لأن سورة العلق لم تتضمن أمرا بالدعوة .... وابتدئ بالأمر بالإنذار، لأن الإنذار يجمع معاني التحذير من فعل شيء لا يليق وعواقبه ، فالإنذار حقيق بالتقديم قبل الأمر، بمحامد الفعال لأن التخلية

---

(١) النور : ٦٣.

(٢) الحجرات : ٢.

مقدمة على التحلية . ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، ولأن غالب أحوال الناس يومئذ محتاجة إلى الإنذار والتحذير[1].

وأما عن معنى (المدثر) فيقول الإمام الآلوسى : وقيل المراد بالمدثر: المتدثر بالنبوة والكمالات النفسانية على معنى المتحلي بها والمتزين بآثارها ، وقيل : أطلق المدثر وأريد به الغائب عن النظر ، على الاستعارة والتشبيه ، فهو نداء له بما كان عليه فى غار حراء ، وقيل الظاهر بالمدثر وكذا بالمزمل الكناية عن المستريح لأنه في أول البعثة فكأنه قيل له (ﷺ) قد مضى زمن الراحة وجاءتك المتاعب من التكاليف وهداية الناس ، وأنت تعلم أنه لا ينافى إرادة الصورة الحقيقية وأمر التلطف على حاله[2].

وقال أيضا معنى الآية : فكأنه قيل له : يا من توقف أمور الناس عليه لأنه وسيلتهم عند الله عز وجل قم من مضجعك أو قم قيام عزم وتصميم [3].

وهذه الآية وما بعدها إيذانا للرسول صل الله عليه وسلم بأن ما مضى قد انتهى بمنامه ، وأنه أمام عمل عظيم ، يستدعى اليقظة والتشمير عن ساعد الجد والاجتهاد ، وليكن فى عزيمة قوية تتحرك فى

---

(1) التحرير والتنوير : ٢٧٥/٢٩.

(2) روح المعاني : ١١٦/٢٩.

(3) مرجع سابق : ١١٦/٢٩.

اتجاه تحقيق واجب التبليغ ، فرسالته صل الله عليه وسلم تعتمد على الكفاح والجهاد .

* * *

المبحث الخامس

ما يعقب النداء له (صلى الله عليه وسلم)

في نداء الله عز وجل للنبي (ﷺ) غالبا ما يأتي عقيبه الأمر والنهى والاستفهام ، وهذا تهيئة وإعداد للنفس لتلقى تلك الأساليب ، لأن النداء يوقظ النفس ويلفت الذهن ، وينبه المشاعر ، فإذا جاء بعده الأمر أو النهى أو الاستفهام صادف نفسا يقظة مستعدة للقبول والامتثال ، كما أنه دليل على اهتمام المتكلم وعنايته بهذا الطلب ، والتأكيد على تنفيذه وأدائه .

لذا كثر مجئ هذه الأساليب مصاحبة للنداء

يقول الزمخشرى : " كل نداء في كتاب الله تعالى يعقبه فهم في الدين، إما من ناحية الأوامر والنواهى التي عقدت بها سعادة الدارين ، وإما مواعظ وزواجر وقصص لهذا المعنى ، كل ذلك راجع إلى الدين الذي خلق الخلق لأجله، وقامت السموات والأرض به ، فكان حق هذه أن تدرك بهذه الصيغة البليغة " [1].

ومن خلال بعض الآيات السابقة في هذا البحث التي نودي فيها النبي (ﷺ) نجد أن ما جاء عقيب ندائه (ﷺ) الأمر مثل قوله

---

(1) الكشاف / ١/٢٢٦.

تعالى: [يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك] وقوله: [يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين] وكذلك جاء عقب ندائه (ﷺ) النهى وذلك فى قوله تعالى: [يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ....] ، وما معطوفا على الأمر وهو قوله تعالى: [يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين].

وكذلك جاء عقب ندائه (ﷺ) الاستفهام وهو الموضع الوحيد في القرآن الكريم وذلك قوله تعالى : [يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ...] .

ففي هذه النداءات وما يعقبها من أمر أو نهى أو استفهام تهيئة للنفس وإعداد لها لقبول ما يطلب منها ، وهذه الأوامر التي طلبت من النبي (ﷺ) أوامر عظيمة ، ولما كان هو القدوة لأمته ، وهو الجدير للقيام بها ، فلا غرو أن ينادى بوصفه الشريف " النبي " أو " الرسول " أو ما يناسب ما كان عليه من حالة وصفها الله عز وجل مثل قوله: [يا أيها المزمل] ، [يا أيها المدثر] مما يدل على رفعة قدره وعظيم منزلته عند من أرسله ، فعلى الناس أن يجلوه ويوقروه ويتبعوه .

حتى فى النداء ومجئ النهى بعده أتى الله عز وجل بوصفه يقول: [يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر] ، تأكيدا عليه وتذكيرا له للقيام بأداء مهمة الرسالة ودعوة الناس .

وأيضا جاء عقيب ندائه (ﷺ) الخبر ، ومن ذلك الجملة الشرطية وذلك مثل قوله تعالى: [يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ...]

وغيرها مثل قوله تعالى: [يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين] .

فما جاء في هذه الآيات هو رسالة النبي (ﷺ) التي أمر بإبلاغها وتوصيلها إلى الناس ، فالمقام مقام النبوة وإبلاغ الرسالة .

* * *

المعاني التي تتضمنها نداء النبي صلى الله عليه وسلم : ▪

الناظر فيما جاء في القرآن الكريم من آيات فيها نداء للنبي (ﷺ) يجدها قد تضمنت معاني عظيمة وأوامر أمر بها من قبل ربه عز وجل ليوصلها إلى خلقه، ومن تلك المعاني :

(١) أمره (ﷺ) بإبلاغ الرسالة ، وما يتعلق بها .

(٢) أمره (ﷺ) بالجهاد وحثه عليه مع الثقة بنصر الله عز وجل له ولأتباعه.

(٣) أمره (ﷺ) بالتزود من التقوى والتقرب إلى الله عز وجل وحده دون غيره من البشر .

(٤) أمره (ﷺ) ببيان ما يتعلق بالأحكام الخاصة به وأهله ، وكذلك ما يتعلق بالمؤمنين معه .

سر ندائه (صلى الله عليه وسلم) بـ [يا أيها] : ■

كثر النداء في القرآن الكريم بـ [يا أيها] ما لم يكثر فى غيره وفى ذلك يشير الزمخشرى إلى سر النداء بهذه الصيغة فيقول : وذلك لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة ، لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره ، ووعده ووعيده ، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم ، وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام .وخطوب جسام ، ومعان عليهم ، أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها ، وهم عنها غافلون ، فاقتضت الحال أن ينادوا بالأكد الأبلغ"[1].

وللزمخشرى تحليل بديع وكشف عن سر كثرة هذا التركيب [يا أيها] في القرآن، حيث يقول: " أى" وصلة إلى نداء ما فيه " ال " وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه ، فلابد أن يردفه اسم جنس أو ما يجرى مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء ، فالذى يعمل فيه حرف النداء هو " أي " والاسم التابع له صفته وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة والموصوف لفائدتين ".

(١) معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه .

---

(1) الكشاف : ١/١٠٦.

(٢) وقوعها عوضا مما يستحقه " أى" من الإضافة [١].

وللرازي تفريق دقيق بين النداء بـ " يا " والنداء بـ " يا أيها " وبيان السر البياني فى اختصاص ندائه (ﷺ) بـ " يا أيها " فيقول : قول القائل يارجل يدل على النداء وقوله : يا أيها الرجل يدل على ذلك أيضا ، وينبئ عن خطب المنادى له ، أو غفلة المنادى ... ولأن قوله " يا أى " جعل المنادى غير معلوم أولا، فيكون كل سامع متطلعا إلى المنادى ، فإذا خص واحدا كان فى ذلك إنباء الكل لتطلعهم إليه ، وإذا قال : يارجل لا يلتفت إلى جانب المنادى إلا المذكور ، وإذا علم هذا فنقول : " يا أيها " لا يجوز حمله على غفلة النبى (ﷺ) لأن قوله : " النبى " عليه السلام خبير فلا يكون غافلا، فيجب حمله على خطر الخطب[٢].

* * *

(١) المرجع السابق.

(٢) مفاتيح الغيب : ١٦/٢٦٠ ، ٢٦١.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على من شرفه ربه بتشريفات كثيرة وعظيمة وبعد ....

فبعد ذلك التجوال فى الآيات التى جاء فيها نداؤه (ﷺ) تبين مدى عناية المولى عز وجل وحفظه وكلاءته لنبيه ومصطفاه محمد (ﷺ) فقد أعلى من قدره ، وأعظم من منزلته ، وخصه بفضائل ومحاسن تدل على شرف هذه المنزلة ، وأوجب على الأمة تعظيمه وتوقيره والإيمان به ومحبته وطاعته.

ومن سمو منزلته وشرف قدره أنه عز وجل لم يناده كما نادى الرسل من قبل بأسمائهم ، يا آدم ، يانوح ، يا إبراهيم وغير ذلك مما جاء فى القرآن الكريم بل ناداه بأوصاف شريفة منها يا أيها الرسول ، يا أيها النبى وناداه بأوصاف مشتقة من الحالة التى كان عليها تأنيسا ولطفا به (ﷺ) مثل يا أيها المزمل ، يا أيها المدثر .

وكل هذه الآيات التي نودى فيها الرسول (ﷺ) بهذه الأوصاف نجدها قد تضمنت كثيرا من الأحكام الشرعية مما يخصه وأهله ، أو ما يشترك فيه مع أفراد أمته وهذا ما ظهر من خلال هذا العرض الموجز .

* * *

والله من وراء القصد

فهرس
المصادر والمراجع

* الإتقان في علوم القرآن . للسيوطي . طبعة مكتبة دار التراث. ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم.

* إرشاد العقل السليم. لأبي السعود. ط/ دار إحياء التراث العربي. بيروت.

* إعراب القرآن. للزجاج. ط/ دار الكتاب اللبناني. بيروت . لبنان.

* الأغاني. لأبي الفرج الأصفهاني. ط/ دار الفكر. بيروت .

* أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك . تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

* البحر المحيط. لأبي حيان. ط/ دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ١٤٢٢هـ.

* البرهان في علوم القرآن. للزركشي. ط/ دار التراث. ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم .

* البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة . للشيخ / عبد الفتاح القاضي. ط/ دار السلام ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

* تاج العروس للزبيدي. ط/ دار الهداية.

* تفسير القرآن العظيم. لابن أبي حاتم الرازي. ط/ المكتبة العصرية. بصيدا. ت/ أسعد الطيب.

* تفسير القرآن العظيم لابن كثير دار طيبة للنشر. الثانية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

* تفسير المنار لمحمد رشيد رضا . ط/ المنار. مصر ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٤م.

* التفسير الوسيط. د/ محمد سيد طنطاوي. ط/ دار المعارف. مصر١٩٩٣م.

* التحرير والتنوير. للطاهر بن عاشور. ط/ مؤسسة التاريخ العربي. الأولى. بيروت . لبنان ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

* جامع البيان لابن جرير الطبري. ط/ مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ/ ت: أحمد شاكر.

* الجنى الداني للمرادي. ط/ دار الكتب بغداد ١٩٧٦م.

* روح البيان لإسماعيل حقي. ط/ دار إحياء التراث العربي.

* روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني للآلوسي. ط/ دار إحياء التراث العربي. بيروت.

* شرح صحيح البخاري لابن بطال البكري القرطبي. ط/ مكتبة الرشد. الثانية الرياض السعودية ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.

* صحيح البخاري. ط/ دار ابن كثير. اليمامة . بيروت. الثالثة ١٤٠٧هـ.

* صحيح مسلم. ط/ دار إحياء التراث العربي. بيروت. ت: محمد فؤاد عبد الباقي.

* في ظلال القرآن لسيد قطب. ط/ دار الشروق بيروت.

* فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر. ط/ دار المعرفة بيروت.

١٣٧٩هـ .

* كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي. ط/ مكتبة الهلال ت: مهدي المخزومي.

* الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري. ط/ المكتبة التوفيقية. الأولى ٢٠١٢م.

* الكليات لأبي البقاء الكفوي. ط/ مؤسسة الرسالة. بيروت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

* اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي. ط/ دار الكتب العلمية. الأولى بيروت لبنان ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م. ت: عادل عبد الموجود.

* لسان العرب المحيط لابن منظور. ط/ دار صادر بيروت الأولى.

* اللمحة في شرح الملحة. لمحمد بن الحسن الصائغ. ط/ المدينة المنورة. الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م. ت: ابراهيم الصعيدي.

* مختار الصحاح للرازي. ط/ بيروت ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م. ت: محمود خاطر.

* المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. د/ جواد علي. ط/ دار الساقي.

* مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري. ط/ دار الفكر بيروت ت: د/ مازن مبارك.

* مفاتيح الغيب للرازي. ط/ دار الكتب العلمية الأولى بيروت لبنان ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

* محاسن التأويل للقاسمي. ط/ دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي ١٣٢٧هـ.

* معالم التنزيل للبغوي. ط/ دار طيبة للنشر. الرابعة ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

* موطأ مالك. ط/ مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م. ت: محمد مصطفى الأعظمي.

* نداء المخاطبين في القرآن. أسراره وبلاغتـــه. د/ علـــي عبـــد الواحد وفي. مجلة كلية اللغة العربية القـــاهرة. العـــدد الثـــامن ١٣٩٨هـــ/ ١٩٧٨م.

* نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي. ط/ مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ١٤٠٤هـــ / ١٩٨٤م.

* همع الهوامع للسيوطي. دار البحوث العربية . الكويت.

* * *

محتويات البحث

الموضـــــــــــــــــــــــــــــــوع

مقدمة :

المبحث الأول : تعريف النداء لغة واصطلاحًا :

أوجه النداء في القرآن.

أدوات النداء واستعمالاتها :

حروف النداء :

هل استعمل القرآن الكريم في نداءاته غير الياء ؟

سمو منزلته (ﷺ) :

المبحث الثاني : أساليب نداء الله عز وجل لنبيه ورسوله (ﷺ) .

نداؤه (ﷺ) بوصف الرسالة :

المبحث الثالث : النداء بصفة النبوة :

أولاً : نداؤه (ﷺ) بتنفيذ بعض ما كلف به من أحكام.

ثانيًا : نداؤه (ﷺ) في بعض شئون خاصة به.

ثالثًا : نداؤه (ﷺ) في بعض شئون خاصة به وبالمؤمنين.

رابعًا : نداؤه (ﷺ) في تشريعات عامة للمؤمنين.

خامسًا: نداؤه (ﷺ) بالأمر بالتقوى .

المبحث الرابع : نداؤه (ﷺ) بصفات أخرى :

أولاً : نداؤه بالمزمل :

ثانيًا : نداؤه بالمدثر :

المبحث الخامس : مع يعقب النداء له (ﷺ) :

المعاني التي تتضمنها نداء النبي (ﷺ) .

سر ندائه (ﷺ) بـ " يا أيها " :

خاتـــــمة :

فهرست المراجع والمصادر

محتويات البحث